أحمد سامح الخالدى

للأستاذ نجاتى صدقى

هذا الموت الذى لا يرحم .. قد اختطف نفس عرب فلسطين كبير ، ومؤرخ يشار إليه بالبنان ، وصاحب فضل عميم على الشبيبة الفلسطينية المثقفة ، ألا وهو المرحوم أحمد سامح الخالدى

والأسرة الخالدية فى فلسطين هى من الأسر العربية الحجازية العريقة ، أسرة قضاء وعلم ، أسرة أدب وشعر ، أسرة تربية وتاريخ وطب

مارست القضاء على التوالى خلال ثمانمائة سنة ، فرحل قسم منها إلى مصر واشتغل مناصب القضاء ، وقبور الدير الخالدى فى القاهرة تشهد على ذلك ، ثم عادت إلى فلسطين لتمارس القضاء والعلوم على شتى أنواعها

ومن أعلامها الذين توفاهم الله العالم الكبير ، والحجة الثقة المرحوم الشيخ خليل الخالدى مؤسس المكتبة الخالدية الموجودة فى القدس حتى أيامنا هذه . وليس من متعلم فلسطينى إلا لجأ إلى هذه المكتبة العامرة طالبا التبحر فى المسائد ، وساعيا إلى التأكد من المراجع . . وما المكتبة الخالدية إلا مكتبة الأسرة تركها السلف إلى الخلف ؛ ثم أصبحت مكتبة قومية لعرب فلسطين كافة

وعميد الأسرة الخالدية اليوم هو العالم المجتهد الشيخ راغب الخالدى ، رجل هيبة ووقار ، وحجة من البقية الصالحة وبالرغم من تخطيه سن التسعين .. هو والد الدكتور حسن ، والدكتور حسين ، وأحمد سامح ، وغالب ، ويعقوب ، وإسماعيل

ولد فقيدنا فى القدس سنة ١٨٩٦ ، وتلقى علومه الابتدائية فى مدرسة الأميركان ، ثم فى مدرسة المطران ، ثم التحق بالجامعة الأمريكية ببيروت حيث درس العيدلة ونال شهادتها سنة ١٩١٦ وهو فى العشرين من عمره ، ولما أعلنت الهدنة عاد إلى الجامعة فنال درجة بكلوريا فى الاقتصاد والتربية ورجع إلى فلسطين حيث عين مفتشا للمعارف فى يافا ، وتابع فى الوقت ذاته دراسته إلى أن تم له الحصول على درجة أستاذ فى التربية

وعن فترة من الزمن فيمين مساعدا لمدير معارف فلسطين ، ويتبع ذلك تعيينه مديرا للكلية العربية فى القدس سنة ١٩٢٥ وظل فى منصبه هذا إلى أن حلت النكبة بعرب فلسطين

ومن المشاريع الجليلة التى حققها المرحوم مشروع لجنة اليتيم العربى لأيتام الثورات العربية فى فلسطين ، فأنشأ لهم معهدا فى دير عمرو . أذكر وقت أن دعانى الفقيد الغالى لزيارة هذا المعهد سنة ١٩٤٦ ، فأقلتنا السيارة بين الوهاد والتلال إلى أن بلغنا قمة جبل ، وقد انتصبت عليه أبنية حجرية جميلة . . وراح رحمه الله يحدثنى عما لاقاه من متاعب جمة لإقامة هذا المعهد للبنين ، ومن عزمه على إقامة معهد آخر للبنات . فقلت له : وكم كلفكم بناء هذا المعهد ؟ . . قال : حوالى مائة وخمسين ألف جنيه فلسطينى ، توليت تنظيم جمعها بنفسى

ولما بدأت الغيوم القاتمة تتلبد فى سماء فلسطين أسرع رحمه الله واستحصل من الحكومة المنتدبة على مبلغ مائة ألف جنيه لتتميم بناء مدرسة بيت حنينا وتجهيزها فى قضاء بيت لحم ، وتخصيصها للتلاميذ العرب فى حالة تقسيم فلسطين ، وقد عينت الحكومة لجنة أمناء لتحقيق هذا المشروع مؤلفة من الفقيد ، والأستاذين نافذ الحسينى ، وأنطون عطا الله ، ثم أودعت اللجنة المبلغ المذكور فى بنك باركلاس إلى أن تستقر الحالة ، ولا يزال هذا المبلغ مودعا فيه

كانت مدرسة بيت حنينا هذه تشغل حيزا كبيرا من تفكير الفقيد إبان إقامته فى لبنان . كان يحنى النفس بالعودة إلى وطنه ليعيد للعلم صرحه ، لكن الأوضاع العامة لم تسعفه فانتظر وطال انتظاره

وفى العشرين من شهر إبريل سنة ١٩٤٨ لجأ رحمه الله مع قريته الأديبة الفاضلة السيدة عنبرة سلام الخالدى إلى وطنها الثانى .. وكان إبان حياته فى هذا البلد الشقيق عاملا فعالا من أجل تعليم أبناء اللاجئين ، فأسس فى جنوب لبنان مدرسة نموذجية قريبة الشبه بمعهد دير عمرو ، وقد أعانه فى تحقيق هذا المشروع

ساكن الجنان رياض الصلح

لم يكف الفقيد لحظة واحدة عن الكتابة والتأليف عن لبنان، فكان يعقد الفصول فى مجلتى (الأديب)، و (الرسالة) وينشر المقالات فى جريدة (بيروت المساء) بعنوان — فلسطين فى نصف قرن رأيتها تنهار —، وقد استخلص مقالاته هذه من كتابه الكبير الذى يحمل هذا الاسم والذى لم ينشر بعد

وأكب موخرا على وضع كتاب معقد هو كتاب (التعليم عند العرب) وقد أنهاه وشرع فى تنقيحه .. وورد ذكر هذا الكتاب فى رسالته لقرينته التى كانت تقوم برحلة استجمام فى ربوع إنكلترا مع شقيقها معالى صائب بك سلام، فقال فيها: «لقد بلغت ياعزيزتى فى تنقيح الكتاب حتى عهد المماليك .. وإننى أتابع عملى دون انقطاع»

وضع فقيدنا اثنين وعشرين مؤلفا، طبع منها ستة عشر، وستة منها هى مخطوطات فقط، وتعالج هذه المؤلفات مواضيع شتى فى التربية، والتاريخ، وعلم النفس، وقد اشترك مع قرينته أديبتنا الكبيرة السيدة عنبرة فى وضع كتاب (تأثير النساء فى الدنيا العربية) ولا يزال هذا الكتاب بين المخطوطات التى لم تطبع بعد

أما كتبه هذه فمنها ما قد تمكن من إخراجه من فلسطين، ومنها — وهو هام جدا — ظل فى بيته فى القدس، ومن حسن الطالع أن يقع البيت والكلية العربية تحت إشراف ممثلى هيئة الأمم المتحدة

وفى شهر يناير سنة ١٩٥١ تعين المربى الكبير فى شركة (البان أميركان للطيران) بعناية مدير معاون لصائب بك سلام ولم يثنه عمله الإدارى هذا لحظة واحدة عن تأدية رسالته التربوية التى كرس حياته من أجلها

كان المرحوم خصب الإنتاج طيلة حياته بالرغم من الصدمة الخاصة التى ألمت به بفقد قرينته الأولى أم الوليد؛ لكن الله وقد أراد أن يهيئ له السبيل إلى تأدية رسالته الكبرى فكافأه بالسيدة عنبرة سلام الخالدى وهى علم من أعلام السيدات العربيات فى القرن العشرين

كانت السيدة عنبرة خير زوج ومعين للمرحوم، ولم يقعدها أمر الإشراف على بيتها وأولادها من تبادل الآراء مع قرينها فى شتى المواضيع، ومن الانصراف إلى ترجمة (الإلياذة)، و (الأوديسى) إلى العربية وقد طبعا وأقرتها حكومة فلسطين، ومن ترجمة (الأنياد) المعدة للطبع الآن

وأنجب فقيدنا ثلاثة بنين وابنتين، وهم: سلافة (٢٧ سنة) تطلب العلم الآن فى كمبردج وهى قرينة الأستاذ عاصم بك سلام المهندس المعمارى، ووليد (٢٦ سنة) وهو يسعى للحصول على الدكتوراه من أكسفورد وأطروحته فيها (البكرى الصديق)، ومساعد المستشرق البروفسور جب فى تحقيقاته، وأسامة (١٩ سنة) وهو يدرس الكيمياء فى إنجلترا وقد نال درجة البكالوريا فيها، ويعمل للحصول على درجة أستاذ فيها أيضا، ورندة (١٦ سنة)، وطريف (١٣ سنة)

كان الفقيد دائم التفكير بفلسطين، ومما آلت إليه أحوال الفلسطينيين، وقد تركت النكبة وأوضاع اللاجئين أثرا عميقا فى نفسه، ومضت الأيام دون أن يرى ثرى وطنه حرا مستقلا، ودون أن يرى هؤلاء المشردين فى كل صقع أحرارا كرماء فى ديارهم، فلم يقو قلبه الكبير على احتمال الكارثة وسكت .. بعد ظهر الخميس ٢٧ أيلول سنة ١٩٥١ الموافق ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٧٠ وشيع جثمانه فى يوم الجمعة إلى مقره الأخير فى مقام الأوزاعى بالقرب من بيروت

كنا نتوقع إبان حياة الفقيد أن تستدعيه الحكومة الأردنية الهاشمية ليشغل المنصب الذى يستحقه .. وكنا نتوقع أن يعمد أصدقاؤه ومحبوه وهم الآن وزراء، ونواب، وسفراء أن يثيروها حملة صاخبة لدعوة عميد المربين الفلسطينيين إلى مواصلة جهاده التربوى فى القدس التى أحبها وأحبته .. لكن شيئا من ذلك ويا للأسف لم يحدث، فتوفاه الله وفى نفسه حسرة

رحمك الله يا أبا الوليد، ونفعنا بعلمك وفضلك

نجاتى صدقى